حتى على العكس من ذلك، القول: حسن ان وقع ما قد وقع. اي بلغة اكثر وضوحا، وليس هنالك، عموما، ما يمكن ان يؤسف من اجله نتيجة لخروج المقاومة الفلسطينية، مرحلة بعد اخرى، من كافة دول الطوق؛ بل يبدو ان في ذلك نوعا من البركة. لقد اظهرت تجربة السنوات الثلاث الاخيرة، بما لا يدع مجالا كبيرا للشك، ان المقاومة الفلسطينية قادرة، في الوضع الجديد، على ممارسة النشاط السياسي والاعلامي والتنظيمي بكفاءة ونجاعة وفعالية وكذلك، وهذا هو المهم، بعقلانية تفوق كثيرا تلك التي ميزت نشاطها اثناء تواجدها في دول الطوق. وكل ذلك اضافة الى ميزة حيوية ومهمة للغاية: التمتع بمدى لا بأس به من الاستقلالية في اتخاذ القرارات وانتهاج الممارسات التي ترتأيها. وباعتقادنا ان هذا المستوى من الاداء، مع شيء من التنظيم البسيط، تستطيع حتى الفوضى الفلسطينية الرقي اليه، يمكن ان يستمر في المستقبل ايضا. صحيح ان النشاط يتم في المهاجر، وممزوج بشيء من الغربة، الا انه مع مستوى التقدم الحالي في المواصلات ووسائل الاتصال الحديثة، يكاد البعد يضمحل وتكاد المهاجر المتباعدة «تختزل» لتصبح وحدة واحدة، يستطيع المتواجدون فيها التعاون والعمل والتفاعل مع بعضهم البعض بسهولة نسبية. اما الشعور بالغربة فيعادله، بل ويتغلب عليه الشعور بالحرية والاستقلالية وحتى بنوع من الاطمئنان لم يكن ابدا من نصيبنا ونحن في دول الطوق اياها. بل اننا نذهب الى أبعد من ذلك. وباعتقادنا انه لو بقيت المقاومة الفلسطينية «معششة» في امبراطورية الفاكهاني وملحقاتها (و «الفاكهاني»، لمن لا يعرف او ربما يكون قد نسي، هو اسم ذلك الحي في بيروت الذي تواجدت فيه مكاتب المقاومة الرئيسية في المدينة، في «ايام العز»؛ ويمكن ان تنسج حوله، وحول «تقاليده» وممارساته، الاساطير، سلبا او ايجابا) تشعر بالراحة والاطمئنان و «العظمة» وتهتم بكل امور الدنيا، عدا ربما عن القضايا الحقيقية المتعلقة بالقضية الفلسطينية، لبقي الوضع على ما كان عليه، وبالتالي لما كان قد شعر احد بضرورة اتخاذ الخطوات والقرارات الملحة والضرورية، والتي ينبغي اتخاذها، ولاستمر الجميع في مشاحناتهم الداخلية، وتنظيراتهم، ورفض كافة المشارع ومقترحات الحلول، زعماً بأنها «استسلامية»، وحقيقة لانعدام القدرة على اتخاذ القرارات او الخوف من عواقبها. ونتيجة لذلك، كنا بقينا نتصرف كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال، وندور في الحلقات المفرغة اياها. غير انه مع الوضع الجديد، يبدو ان هذه الممارسات لن تستطيع ان تستمر طويلا، وليس في ذلك الا ما يعود بالفائدة على التصرف الجماعي الفلسطيني، ولو تم ذلك من خلال الشعور بالضيق فقط.

ان وضع التواجد في المهاجر، الذي تعيشه منظمة التحرير الفلسطينية حاليا، مرشح لان يستمر طويلا، على كل حال. ولا بأس في ذلك. بل يبدو، لاعتبارات عديدة، ان هذا الوضع هو الاحسن. لقد آن الاوان لان ندرك، بناء على تجربة واحداث ما يقارب من ٥٠ سنة، انه ليس في المشرق العربي «امة عربية واحدة»، وهي قطعا ليست «ذات رسالة خالدة»؛ بل ان هنالك شعوبا عديدة، افرز مستواها انظمة مختلفة ذات مصالح متناقضة في احيان كثيرة. وهذا هو الواقع الذي تحسم على اساسه معظم، ان لم تكن كل المسائل المتعلقة بالمنطقة. بل يمكننا ان نلاحظ، دون كبير عناء، ان هذه الانظمة تختلف مع بعضها البعض، ثم تتصارع وتعود لتتحالف في تحالفات واهية (فدائما كان عنصرا الشقاق والعداء هما الغالبين)؛ وفي اثناء ذلك تكون قد «تعاونت» مع العدو الصهيوني، عن قصد او غير قصد، وقدمت له خدمات جلى، تماما كما كانت تفعل الممالك والقبائل التي كانت قائمة ايام الصليبيين مثلا. ولم يصل هذا الوضع ايام زمان الى نهايته، او